نشأة الناصر محمد بن قلاوون وأثرها النفسي على علاقته بأمراء دولته ورجالها

دكتور

موضي بنت عبدالله السرحان

أستاذ مساعد بقسم التاريخ

كلية الآداب – جامعة الملك سعود بالرياض

ملخص

نشأة الناصر محمد بن قلاوون

وأثرها النفسي على علاقته بأمراء دولته ورجالها

يتناول البحث الظروف التي تعرَّض لها الناصر محمد بن قلاوون، فى أثناء نشأته وبدايات سنوات حكمه ، في فترتيه الأولى (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣- ١٢٩٤م) والثانية (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨- ١٣٠٩م)، وتأثير هذه الظروف على الجانب النفسي في شخصيته، ودورها في ترسيخ بعض السمات التي انعكست في تعامله مع كبار رجال دولته من الأمراء والعلماء والإداريين خلال فترة حكمه الثالثة ،التي امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣١٠-١٣٤١م).

و كانت هذه السمات من الوضوح بحيث لفتت أنظار معاصريه من المؤرخين ،الذين لم يتوانوا عن نعت الناصر بها في أكثر من مناسبة تصدى البحث لرصد أبرزها ومناقشتها؛ للوقوف على تأثيرها ودلالاتها ،منطلقاً من روايات المحيطين به في أغلب الأحيان ،وذلك في ضوء بعض العناصر التي تناولت أبرز المواقف التي تعرض لها الناصر محمد وكان لها وقع كبير في نفسه خلال نشأته وولايتيه الأولى والثانية، ثم الأثر النفسي لهذه النشأة في علاقته بالأمراء وكبار رجال دولته، فضلاً عن مقدمة وخاتمة وقائمة ببليوغرافية بأهم المصادر والمراجع .

Abstract:

Al-Nasir Muhammad bin Qalawun's early life and its psychological effect on his relationships with the princes and senior officers in his state

The research studies the circumstances that Al-Nasser Muhammad bin Qalawun faced in his early life and the first years of his reign during its first (693-694 AH/ 1293-1294 AD) and second (698-708 AH/ 1298-1309) periods. It also focuses on the psychological effect that these circumstances had on his character as well as the role they played in enhancing certain features that were reflected in the way he treated the senior officials of his state including princes, scientists, administrators during his third period of reign that lasted more than 30 years (709-741 AH/ 1310-1341 AD).

These features were so pronounced that they did not go unnoticed by his contemporary historians. They readily attributed these features to Al-Nasser on many an occasion. The study sheds light on some of these features to discern their influence and significance based mostly on the accounts of Al-Nasser's entourage. The research likewise unfolds certain elements that accompanied the main situations faced by Al-Nasser Muhammad and that had a major psychological impact on him during his early

life and his first and second reigns. It also addresses the psychological effect of his upbringing on his relationship with the princes and senior officials of his state. The study also comprises an introduction and a conclusion in addition to a bibliography of the main sources and references used in the research.

مقدمة:

بلغت الدولة المملوكية، في عصرها الأول، مكانة كبيرة، خاصة خلال عهد الناصر محمد بن قلاوون ،الذي تولى السلطنة لمدة بلغت ثلاثاً وأربعين سنة على ثلاث فترات متقطعة، منذ أن كان طفلاً في التاسعة من عمره سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، حتى وفاته في ذي الحجة سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م، مما أهله لتبوء مكانة متميزة بين سلاطين الدولة المملوكية، وتبارى مؤرخو عصره في تدوين أخباره ،سواء في كتب التاريخ العام أم كتب السير والتراجم.

وقد تناولت بعض الدراسات شخصية الناصر محمد بجوانبها المتعددة منها: دراسة حياة ناصر الحجي ،التي بعنوان: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ودراسة منال أحمد أبو بكر ،التي بعنوان : صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ) في أدب العصر المملوكي الأول، بالإضافة إلى تمهيد دراسة عبدالعزيز بن راشد العبيدي ، التي بعنوان العلاقات الخارجية لدولة المماليك الأولى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ/ ١٢٩٣-١٣٤٠م)، ولكن الربط بين نشأة الناصر محمد وأثرها النفسي على سياسته الداخلية، والتي أقصد بها هنا، تعامله مع أمرائه وقادة دولته، لم تنل قدراً كافياً من اهتمام الباحثين.

ويوضح أهمية قياس هذا الأثر في سياسة الناصر محمد بن قلاوون عند متابعة الأزمات السياسية التي مرت بها السلطة في مصر خلال عهده؛إذ تمكن من إيجاد نوع من التوازن بين القوى المتنازعة على الحكم ،ضمن به بقاءه لمدة تجاوزت الأربعين عاماً، ولا ريب فى أن هذا التوازن نبع من تجارب مرَ بها الناصر محمد ،رسَّخت في نفسيته أسساً ومبادئ لتفادي المخاطر التي تعصف بمنصبه ،ومداراة التكتلات السياسية المحيطة به ؛ليتمكن من البقاء لمدة أطول في السلطة.

وتهدف هذه الدراسة إلى قياس هذا الأثر ،من خلال تتبع الأحداث التي أثَّرت في نشأة الناصر محمد بن قلاوون ،ثم تناول الأثر النفسي لهذه النشأة على شخصيته، وكذلك دور هذا الأثر في علاقته مع التكتلات السياسية والإدارية التي توالت على حكمه في عواصم دولته.

وستعتمد هذه الدراسة بشكل رئيس على المصادر التي عاصرت الناصر محمد بن قلاوون، وأبرزها: كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ،لمؤلفه بيبرس المنصوري الدوادار (ت ٧٢٥هـ)، وكتاب الدُّرّ الفاخِر في سيرة الملك الناصر لابن أيبك الدواداري (ت٧٣٦هـ). وكتاب تاريخ الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده لشمس الدين الشجاعي (ت ٧٥٦هـ)، وكتاب نزهة النَّاظِر في سيرة الملك الناصر لموسى بن محمد بن يحيى اليوسفي (ت ٧٥٩هـ)، إضافة إلى كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد لابن أبي الفضائل (٧٥٩هـ). والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي وإلى غير ذلك من مصادر تلك الفترة.

أولاً: نشأة الناصر محمد بن قلاوون.

تلقى المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) بُشرى مولد الناصر محمد فى أثناء حصاره لحصن المرْقَبُ[١] و قيل فى أثناء مسيره إليه على خربة اللّصوص[٢]، وذلك في منتصف شهر محرم سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م[٣]، وبعد هذا التاريخ بخمس سنين، وتحديدًا في السادس من ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، توفي المنصور قلاوون تاركاً الناصر محمد في رعاية أمه خوند أَشْلُوْن ابنة الأمير سكناي نوين[٤]، وكنف أخيه وخليفته الملك الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) وله من العمر حينها خمس سنين[٥].

---

(١) حصن المرقب: اسم الموضع الذي يُرْصدٌ فيه الجند للمراقبة، وهو بلد وقلعة حصينة على ساحل بحر الشام. انظر: ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، ط٢ (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ج٥، ص١٠٨

(٢) خَرِبَة اللصوص: مكان بالشام بالقرب من دمشق. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ٤٧٤/٢

(٣) أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق: أولرخ هارمان، (القاهرة: المعهد الألماني للآثار، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ٢٧٣/٨؛ أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ج١، ق٣، ص٧٢٧.

(٤) أحمد بن عبدالوهاب بن محمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ج٣١، ص٢٦٧.

(٥) المقريزي، السلوك، ٣/١، ٧٨٥-٧٨٦.

شهد الناصر محمد خلال سلطنة أخيه الأشرف خليل ما كان يجوب القلعة من تنافس حامي الوطيس بين كبار الأمراء وبعض رجال الإدارة، وبين هؤلاء وبعضهم بعضاً، بدئاً من فتنة الأمير حسام الدين طرنطاي[١]، ومرورًا بتضييق السلطان على عدد من الأمراء بالعزل والقتل والسجن[٢]، وانتهاءً بتمكين وزيره ابن السلعوس[٣] من شؤون الدولة وما ترتب على ذلك من مشاحنات كثيرة داخل أروقة القلعة[٤]، أدت في النهاية إلى عزم الأمير بدر الدين بيدرا[٥]، نائب نائب السلطنة على تدبير مؤامرة لاغتيال الأشرف، وتم له ذلك في الثاني عشر من شهر المحرم ٦٩٣هـ/١٤ ديسمبر ١٢٩٣م عندما كان السلطان في رحلة صيد بالقرب من تروجة[٦].

ومن المؤكد أن مقتل الأشرف خليل كان محطة فارقة في نفسية الصبي الناصر محمد، والذي كان قد بلغ من العمر تسع سنوات؛ إذ صوَّرت المصادر مشهد مقتل الأشرف خليل بن قلاوون تصويرًا دموياً صادماً؛ إذ ضربه بيدرا بالسيف "ضربة أبان يده، ثم ضربه ثانية هدَّ كتفه، فتقدم الأمير لاجين إليه وقال له: يابيدرا! من يريد مُلك مصر والشام تكون هذه ضربته، وضرب

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الفتنة راجع: المقريزي، السلوك، ٣/١، ٧٥٨-٧٥٩. حسام الدين طرنطاي: أبو سعيد المنصوري، نسبة إلى المنصور قلاوون. تولى نيابة السلطنة في عهده، وظل بها إلى عهد الأشرف خليل، الذي أمر بمعاقبته إلى أن مات في ٦٨٩هـ. انظر: خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، د.ط، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ج١٦، ص٢٤٧؛ يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عبدالفتاح عاشور، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، (د.ت)، ج٦، ص٣٨٦-٣٨٧.

(٢) عن أبرز هؤلاء الأمراء انظر: المقريزي، السلوك، ٣/١، ٧٥٩، ٧٦٢، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٧٤، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢.

(٣) شمس الدين محمد بن عثمان، المعروف بابن السّلعوس، بدأ تاجراً صغيراً ثم تولى نظر حسبة دمشق، وبعد تولي الأشرف خليل ولاّه الوزارة، وقُتل بعد فتنة مقتل الأشرف في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م. انظر: النويري، نهاية الأرب، ٣١/١٨٩-١٩٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٦٤/٤.

(٤) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٦٠، ٧٧١-٧٧٣، ٧٨٨.

(٥) بدر الدين بيدرا بن عبدالله المنصوري، أحد مماليك المنصور قلاوون، وتولى نيابة السلطنة في عهد ولده الأشرف خليل، ثم شارك في قتل الأخير، وعلى إثر ذلك قتلته المماليك الأشرفية في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٢٢٤/١٠؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٤٩٣/٣-٤٩٤

(٦) موسى بن محمد اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ط٢ (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ٣: ١٢١؛ النويري، **نهاية الأرب**، ٢١٥/٣٢؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٨٩-٧٩٠. تَرُوجَة:إحدى قرى كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٢: ٢٧.

السلطان على كفته حله، فسقط إلى الأرض، فجاءه بهادر رأس نوبة[1] وأدخل السيف في دبره، واتكأ عليه إلى أن أخرجه من حلقه، وتناول الأمراء ضربه بالسيوف"[2]. ولا شك أن هذا المشهد قد وصل إلي الناصر محمد بكامله من الأمراء، حتى يتمكنوا من نيل شرعية الأحكام التي سينفذونها في قاتلي الأشرف خليل فيما بعد للأخذ بثأره.

وإذ لم تُمهل الظروف الأمير بدر الدين بيدرا طويلاً حتى يجني ثمرة قتله للأشرف خليل وتحقيق أهدافه؛ فبعد أن جلس على العرش بالدهليز السلطاني الذي كان قائماً في تروجة قام الأمراء "بتقبيل الأرض بين يديه وحلفوا له، وتلقب بالملك الأوحد، وقيل: المعظم، وقيل: الملك القاهر... وشرع يعدد مساوئ الأشرف ومخازيه، واستهتاره بالأمراء ومماليك أبيه، وإهمالَه لأمور المسلمين ووزارته ابن السلعوس، ونفور الأمراء منه... وتأميره مماليكه، وقلة دينه، وشربه الخمر في شهر رمضان"[3].

كانت هذه المآخذ، بالإضافة إلى المآخذ الأخرى التي على السلاطين الذين اغتصبوا السلطة من الناصر محمد طوال فترتي حكمه الأولى والثانية – وهم ،العادل كَتْبُغا (٦٩٤–٦٩٦هـ/١٢٩٤–١٢٩٦م)، والمنصور حسام الدين لاجين (٦٩٦–٦٩٨هـ/١٢٩٦–١٢٩٨م)، والمظفر بيبرس الجاشنكير (٧٠٨–٧٠٩هـ/١٣٠٨–١٣٠٩م) جميعها كانت دروساً للناصر محمد تصقل خبرته الإدارية والعسكرية تمهيدًا لحكمه المطلق في ولايته الثالثة بالإضافة إلى الأزمات النفسية الأخرى التي مرَّ بها طوال هذه الفترات، والتي تمثلت في هيئة قيود كُبلت بها حريته، ومهانةً وقلة حيلة أثَّرت لا محالة في تكوينه النفسي في هذه المرحلة المبكرة من حياته وأخذ الحيطة والحذر في كل خطوة من خطواته.

---

(١) سيف الدين بهادر رأس النوبة، أي المتولي الحكم على المماليك السلطانية والآخذ على أيديهم، توفي في سنة ٦٩٣هـ. المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩٦؛ أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ط، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م)، ج٤، ص١٨.

(٢) بيبرس المنصوري الدوادار، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز (بيروت: مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ٢٩٥؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩٠.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩١–٧٩٢؛ قارن كذلك: إسماعيل بن علي بن محمود أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، د.ت)، ج٤، ٣٠؛ يوسف ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت)، ج٨، ص١٧.

ولم تُرض أحداث مقتل الأشرف خليل، وما ترتب عليها من نتائج، عدداً كبيراً من الأمراء والمماليك السلطانية في القاهرة، فتجمع نحو الألفي فارس ،وعلى رأسهم الأمير زين الدين كتبغا، والتقوا مع بيدرا في الطرَّانة[١]، وتمكنوا من ،هزيمته ،وقتله والتمثيل بجثته. يقول بيبرس الدودار الذي عايش هذه الأحداث وما يحيط بها من أحقاد: "وقتل بيدرا

لوقته، ولما خرّ صريعاً وثب إليه بكتمر السلحدار[٢] سريعاً، وبقر بطنه ،واستخرج كبده ،ولاك منها فلذة وابتعلها حنقاً عليه، وجُزَ رأسه ،وحُمل على رمح وطيف به"[٣].

اتفق الأمراء في السادس عشر من المحرم سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م على تولية الناصر محمد، تسكيناً للفتنة لكونه الشخصية الوحيدة المتفق عليها من الأطراف جميعاً، وعُين الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة عوضاً عن بيدرا، كما عُين الأمير علم الدين سنجر الشجاعي[٤] وزيراً ومُدبراً عوضاً عن ابن السلعوس، ثم شرع الأمراء في تتبع المتآمرين على مقتل الأشرف خليل، فأول من وجد منهم الأمير سيف الدين بهادر رأس النوبة، والأمير جمال الدين أقش الموصلي الحاجب، فضربت أعناقهما وأحرقت أبدانهما في المجاير بعد ثمانية أيام من حكم الناصر. ثم اعتقل بعدهما سبعة أمراء في خزانة البنود حتى يقروا على ما كان معهم، وأخرجوا وقطعت أيديهم بالساطور على قرم خشب بباب القلعة، وسُمِّروا على الجمال وأيدهم معلقة في أعناقهم، وطافوا بهم القاهرة، تتقدمهم رأس بيدرا على رمح، فتجمع لرؤيتهم كثير من سكان القاهرة، واستمروا على ذلك أياماً فمنهم من مات على ظهور الجمال، ومنهم من فكَّت مساميره

---

(١) الطرانة: من البلاد القديمة بمصر، وهي قرية واقعة على الشاطئ الغربي للنيل ضمن قرى مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة. انظر: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٨/ ١٦، هـ١.

(٢) سيف الدين بكتمر السلاح دار الظاهري المنصوري: أحد الأمراء المشاهير مقدمي الألوف في الدولة المملوكية، وكان من الأمراء الذين التجأوا إلى ملك المغول محمود غازان في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، هرباً من المنصور حسام الدين لاجين عندما أمر بالقبض عليهم، ثم عاد إلى فى مصر أثناء الولاية الثانية للناصر محمد وتوفي في سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م. انظر: أبو الفدا، المختصر، ٤/ ٣٨؛ خليل بن أيبك الصفدي، **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق: الدكتور علي أبو زيد وآخرون، (بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص٧٠٣؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق: محمد عبدالمعيد خان، (حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ج٢، ص١٧-١٨.

(٣) الدوادار، **زبدة الفكرة**، ٢٩٧.

(٤) علم الدين سنجر الشجاعي تولى نيابة دمشق خلال عهد الأشرف خليل، ثم تولى الوزارة في مصر خلال الولاية الأولى للناصر محمد بن قلاوون، وقُتل في سنة ٦٩٣هـ على إثر الفتنة التي دارت بينه وبين الأمير زين الدين كتبغا، انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٥/٢٨٩؛ النويري، **نهاية الأرب**، ٣١/٢٧٣ فما بعدها.

وحمله أهله، ثم أُخذ مرة ثانية، وأُعيد تسميره فمات. كما أخذت جواري الملك الأشرف في إظهار الحزن والحداد، "إذ تَدرَّعن السُّخام، وطُفن في الشوارع بالنواحات يقمن المآتم، فلم ير بمصر أشنع من تلك الأيام"[١].

وهكذا كانت البيئة المحيطة بالسلطان الطفل في القلعة، يفوح منها رائحة الدم والانتقام، وتتمثل فيها أبشع صور شفاء الغليل والانتقام بين الخصوم، فهذا ابن السلعوس، الذي أُحيل تعذيبه ومعاقبته لألد أعدائه، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري[٢] شاد الصحبة[٣]، ليستخلص منه الأموال، فعاقبه عقاباً شديداً، ثم نُقل إلى الأمير بدر الدين لؤلؤ المسعودي[٤] شاد[٥] الدواوين الذي ابتكر طرقاً عدة لتعذيبه إلى أن مات في العاشر من صفر وقيل سابع عشرة، ثم ضرب بعد موته ثلاث عشرة مقرعة[٦].

وما إن انتهى القائمون على إدارة الحكم من تبعات مقتل الأشرف خليل بن قلاوون، حتى دخلوا في صراع بين بعضهم بعضاً، لم يخل أيضاً من مشاهد الانتقام والقتل والدم؛ إذ حاول الوزير علم الدين سنجر الشجاعي[٧] الاستبداد بأمور الحكم، فشرع في إعمال التدبير

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩٦. قارن أيضاً: أبو الفدا، **المختصر**، ٣٠/٤؛ مفضل ابن أبي الفضائل، **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، نشره بلوشيه (١٩١٩-١٩٢٩م)، ج٢، ص٤١٢-٤١٣.

(٢) الأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري، جاء إلى صفد برتبة أمير طبلخاناه، ثم تولى مشد الدواوين في القاهرة، وكان على خلاف مع الوزير ابن السلعوس. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ١٠٠/٤-١٠١.

(٣) شاد الصحبة: الذي يتولى الإشراف على المطبخ السلطاني، ويعاون من هو أعلى منه مرتبة، ويسمى أستادار الصحبة، انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ١٣/٤.

(٤) بدر الدين لؤلؤ بن عبدالله المسعودي، ولاه الأشرف خليل بن قلاوون مشداً في الديار المصرية، وتوفي بدمشق في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م، انظر: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري، **تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت: المكتبة العصرية، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص٣١١؛ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، (١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، ج٥٢، ص٢٦٨.

(٥) شاد الدواوين أي مفتش الدواوين ومراجع حساباتها، وعادة ما يكون برتبة أمير عشرة. انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٢٢/٤؛ حاشية زيادة، المقريزي، **السلوك**، ج١، ق٥٠١/٢.

(٦) الدوادار، **زبدة الفكرة**، ٣٠٠؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩٧-٧٩٨.

(٧) علم الدين سنجر الشجاعي: الأمير الكبير علم الدين الشجاعي المنصوري، نسبة إلى المنصور قلاوون، تولى شدَّ الديار المصرية، ونيابة دمشق، ثم الوزارة بمصر، وكان قد قارب الخمسين عند قتله في ٢٤ صفر سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٢٨٩/١٥؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٨٠/٦.

على غريمه الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطان، واستمال إليه المماليك السلطانية، واتفق معهم على أن من أتاه برأس أمير من الأمراء المصاحبين لكتبغا فله إقطاعه. وكلَّف الأمير علم الدين سنجر البندقداري[١] بالقبض على كتبغا، فما كان من كتبغا إلا أن تحرز على نفسه، وقام أحد مماليكه[٢] بضرب سنجر البندقداري "بالسيف حلَّ كتفه، ونزل إليه بقية مماليك كتبغا وذبحوه"[٣]، ثم توجه كتبغا بمن معه لمحاصرة الشجاعي داخل القلعة، "فجدوا في حصار القلعة حتى طلع الملك الناصر على البرج الأحمر وتراءى لهم، فنزل الأمراء عن خيولهم إلى الأرض وقبلوا له الأرض، وقالوا: نحن مماليك السلطان، ولم نخلع يداً من طاعته، وما قصْدنا إلا حفظ نظام الدولة واتفاق الكلمة، وإزالة الفساد"[٤]، واشتد الحصار واستمر لسبعة أيام فطلعت أم السلطان وتحدثت مع المحاصرين، فقالوا: "مالنا غرض إلا القبض على الشجاعي وإخماد الفتنة، ولو بقى من بيت أستاذنا بنت عمياء كنا مماليكها، لا سيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه كفاية"[٥]، وبعد مناوشات بين الطرفين، انفض أنصار الشجاعي من حوله، "ووثب عليه أحد المماليك وضربه من ورائه بسيف أطار يده، وثنى بأخرى أسقطت رأسه عن بدنه، ورفعت في الحال على السور، وكان عمره نحو خمسين سنة"[٦]، وكان ذلك في الرابع والعشرين من صفر ٦٩٣هـ/٢٥ يناير ١٢٩٤م[٧]، وطيف برأسه في القاهرة[٨].

لم تكد الأحداث تهدأ عقب فتنة الشجاعي، حتى اشتعلت فتنة المماليك الأشرفية، وهم مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، اعتراضاً على ظهور أحد قاتليه، وهو الأمير حسام

---

(١) علم الدين سنجر البندقداري: لم أستدل له على ترجمة، وسياق الأحداث يُشير إلى أنه أحد المماليك السلطانية الأشرفية. انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ٢٧٥/٣١.

(٢) يقال له بكتوت الأزرق وهو من أكبر مماليك العادل زين الدين كتبغا، وقُتل في الهجوم الفاشل الذي قام به حسام الدين لاجين والأمراء على دهليز الملك العادل كتبغا قُرب دمشق لقتله في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. انظر: أبو الفدا، **المختصر**، ٣٤/٤؛ أبي بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري؛ **كنز الدرر وجامع الغرر**، الدُّرّ الفاخِر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت روبمر (القاهرة: قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، ١٣٧٩-١٩٦٠)، ٣٦٦/٨؛ الصفدي، **أعيان العصر**، ٧١٦/١.

(٣) النويري، **نهاية الأرب**، ٢٧٥/٣١؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩٩-٨٠٠.

(٤) الدوادار، **زبدة الفكرة**، ٢٩٨؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٧٩٩-٨٠٠.

(٥) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٠١.

(٦) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٠١.

(٧) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٥/ ٢٨٩.

(٨) للمزيد عن تلك الفتنة راجع: بيبرس المنصوري الدوادار، **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، قدم له: عبدالحميد صالح حمدان، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص١٣٩ وما بعدها؛ أبو الفدا، **المختصر**، ٣١/٤، المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٠١.

الدين لاجين، الذي ظل مختفياً إلى أن ظهر تحت حماية الأمير زين الدين كتبغا، الذي انفرد بإدارة شؤون الحكم بوصفه نائب السلطان الملك الناصر محمد وولي عهده، فارتجت القاهرة من جراء هذه الفتنة، وأحرق المماليك الأشرفية باب السعادة أحد أبوابها، وقصدوا سوق السلاح وفتحوا الحوانيت وأخذوا الأسلحة، ثم مضوا إلى القلعة وتظاهروا هناك، وبعد مناوشات تمت هزيمتهم، والقبض على أكثرهم، "فضربت رقاب بعضهم بباب القلعة، وقطعت أيدي جماعة وأرجلهم، وغُرِّق كثير منهم، وفيهم من أكحل وفيهم من قطعت ألسنتهم، ومنهم من صُلب على باب زويلة"[١].

استغل زين الدين كتبغا فتنة المماليك الأشرفية واجتمع بالأمراء في دار النيابة ،وقال: "قد انخرق ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنة"، وقرروا خلع الناصر محمد واعتقاله في بعض قاعات القلعة بصحبة أمه، وبوصاية القاضي زين الدين علي بن مخلوف المالكي[٢] ،وإقامة كتبغا سلطاناً خلفًا له ،في يوم الأربعاء ١١ محرم ٦٩٤هـ/٢ ديسمبر ١٢٩٤م ،وتلقب بالملك العادل[٣].

وساءت الأوضاع الاقتصادية للبلاد خلال سلطنة الملك العادل كتبغا؛ إذ اشتد غلاء الأسعار مع انخفاض النيل، وانتشرت المجاعات، ومرت البلاد بأزمة اقتصادية حادة، إضافة إلى تقريبه لمماليكه وإبعاد كبار الأمراء ،فقرروا اغتياله بمنطقة العوجاء قريباً من الرملة[٤] في شهر المحرم ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، فهرب منهم إلى دمشق، فقرروا اختيار الأمير حسام الدين لاجين سلطاناً وتلقب بالملك المنصور، وعندما لم يجد العادل كتبغا بداً أعلن بيعته للسلطان الجديد، وخلع نفسه، ورضي بالبقاء في قلعة صرخد[٥] في شهر ربيع الأول ٦٩٦هـ/ديسمبر ١٢٩٦م[٦].

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٠٦؛ قارن أيضاً: الدوادار، **زبدة الفكرة**، ص٣٠٤-٣٠٥؛ الدواداري، **كنز الدرر**، ٨/ ٣٥٣ وما بعدها؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٤٨/٨-٤٩.

(٢) زين الدين علي بن مخلوف المالكي، ولد في سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، ثم تولى قضاء الديار المصرية في أواخر سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، واستمر به إلى أن توفي في سنة ٧١٨هـ انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١١٨/٢٢؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ١٥٢/٤.

(٣) الدواداري، **كنز الدرر**، ٢١٧/٩؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٠٧.

(٤) ذكرها ياقوت بقوله: نهر بين أرسوف والرملة، ياقوت، **معجم البلدان**، ١٦٧/٤.

(٥) صرخد: قلعة حصينة وبلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال الشام. ياقوت، **معجم البلدان**، ٣/ ٤٠١.

(٦) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٠٧.

ويسوق المقريزي رواية يشير فيها إلى حوار دار بين الملك الناصر محمد والملك المنصور حسام الدين لاجين ،عندما قرر الأخير إبعاده إلى الكرك ،فيقول: "وفي هذا الشهر [صفر ٦٩٧هـ] استدعى السلطان قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي، وصي الملك الناصر محمد بن قلاوون وقال له: الملك الناصر ابن أستاذي، وأنا قائم في السلطنة كالنائب عنه إلى أن يحسن القيام بأمرها، والرأي أن يتوجه إلى الكرك ،وأمر بتجهيزه، ثم قال: [للسلطان الملك الناصر محمد]، لو علمت أنهم يخلوك سلطاناً والله تركت الملك لك، ولكنهم لا يخلونه لك. وأنا مملوكك ومملوك والدك أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل، وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلى ملكك، بشرط أنك تعطيني دمشق وأكون بها مثل صاحب حماة فيها. فقال له الناصر: فاحلف لي أن تُبقي على نفسي وأنا أروح، فحلف كل منهما على ما أراده الآخر"[١] وخرج الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك أواخر شهر صفر ٦٩٧هـ/نوفمبر١٢٩٧م وهو في الثلاثة عشر من عمره[٢].

ويُستدل من هذا الحوار على ما كان يريده المنصور حسام الدين لاجين من الناصر محمد، وهو أن تحنكه التجارب حتى يستطيع الاحتفاظ بملكه، وهو الذي عايش في فترة بقائه بالقاهرة ما تموج به القلعة من فتن وتحزبات ،يمكنها أن تعصف بأعتى السلاطين فكيف بالأمراء؟! ولكن هذا الاستدلال لا يستبعد احتمالية أن يكون للمنصور لاجين هدف من استبعاد الناصر محمد، الذي ربما رأى في بقائه بالقلعة خطراً عليه.

وعلى الرغم من بقاء الناصر محمد بالكرك ،كان على اطلاع بما يحدث في القاهرة ، وقد تواصلت الفتن والاضطرابات بين الأمراء بعد خروجه، وأخذت الوشاية تعمل عملها بين كبار الأمراء والمنصور لاجين، خاصة مع تقريبه مملوكه منكوتمر[٣]على حساب الأمراء، واتخاذه نائباً، مما أوغر قلوبهم عليه، يُضاف إلى ذلك اعتقاله لبعض كبار الأمراء بوشاية

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٣٢-٨٣٣.

(٢) النويري، **نهاية الأرب**، ٤٥/٣٣.

(٣) الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي، نسبة إلى السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، وقد تولى نيابة السلطنة في عهده، وتحكم في وتحكم في شؤون الدولة مما تسبب في مقتله في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ٤٥٥/٥-٤٥٦.

نائبه، ثم أتى الروك الحسامي[١] ليكون أهم الأسباب في زوال الدولة– على حد تعبير المقريزي– لما ترتب عليه من نقصان في إقطاعات الأجناد والأمراء، فلم يمض وقت طويل حتى دبَّر الأمراء مؤامرة لقتل المنصور لاجين، وتم ذلك في مشهد دموي بأن "أخذته السيوف من كل جانب حتى صار كوم لحم"[٢]، كما أن منكوتمر لقى حتفه بقدر الشناعة التي نالها أستاذه؛إذ حيث ضُرب بفأس من حديد حتى صُرع ثم ذُبح، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ/يناير ١٢٩٩م[٣].

- **ولاية الناصر محمد الثانية:**

عقب مقتل المنصور لاجين طرح الأمراء فكرة استدعاء الناصر محمد من الكرك لتولي السلطنة، فاعترض قاتلو لاجين، و قال الأمير كرجي: "يا أمراء! أنا الذي قتلت السلطان لاجين وأخذت ثأر أستاذي [يقصد الأشرف خليل]، والملك الناصر صغير ما يصلح، ولا يكون السلطان إلا هذا – وأشار لطغجي[٤]–، وأنا أكون نائبه... فسكت الأمراء وانفضوا وتأخر الإرسال إلى الملك الناصر"[٥].

ولم يتفق الأمراء على هذا الرأي طويلاً ،و وقعت فتنة راح ضحيتها الأمير طغجي؛ إذ ضُرب بالسيف على وجهه فشق نصفين، ثم أخذته السيوف "وحُمل في مزبلة من مزابل الحمام

على حمار إلى تربته بجوار إسطبله خارج باب زويلة"[٦]، ثم طال الذبح رفيقه كرجي في شهر ربيع الآخر من سنة ٦٩٨هـ/يناير١٢٩٩م[٧].

---

(١) الرُّوك: مصدر للفعل (راك)، ويعني مسح الأرض الزراعية وفك الزمام في بلد من البلاد؛ لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال. والمقصود بالروك الحسامي الذي أجراه حسام الدين لاجين في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٥٠٠/٣، ٥٠١/٣. وعن الروح الحسامي راجع: النويري، **نهاية الأرب**، ٣٤٥/٣١-٣٤٧.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٥٧-٨٥٨؛ قارن أيضًا: الدواداري، **كنز الدرر**، ٣٧٨/٨-٣٧٩.

(٣) الدواداري، **كنز الدرر**، ٣٧٨/٨-٣٧٩؛ الصفدي، **أعيان العصر**، ٢: ٦٠٥؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٥٧-٨٥٨

(٤) طغجي: سيف الدين الأشرفي مملوك الملك الأشرف خليل بن قلاوون، الذي أمره ومكنه وأعطاه سلطة كبيرة، ولكن بعد وفاة سيده ذهب سلطانه، وظل أميراً خلال عهد دولة العادل كتبغا والمنصور لاجين، إلى أن قتل في شهر ربيع الآخر ٦٩٨هـ/ يناير ١٢٩٩م. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ٦٠٥/٢-٦٠٦.

(٥) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٦٦.

(٦) الدواداري، **كنز الدرر**، ٣٨١/٨-٣٨٢؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٦٨.

(٧) الصفدي، **أعيان العصر**، ٦٠٥/٢؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٦٩.

وبعد انتهاء هذه الأحداث، استقر رأي الأمراء على استدعاء الناصر محمد لتولي شؤون الحكم، وبداية سلطنته الثانية، فخرج إليه الأميران سيف الدين آل ملك الجوكندار[١]، وعلم الدين سنجر الجاولي[٢]، وعندما قدما إلى الكرك وجداه يتصيَّد بمنطقة الغور[٣]، فقبَّلا الأرض بين يديه، ثم ذهب الأمير جمال الدين أقوش[٤]، نائب الكرك ليزفَّ البشرى لوالدة الناصر محمد، فتردَّدت في البداية خِشية أن تكون مكيدة، ثم أخذ الناصر محمد يتجهز للسفر ووصل إلي القاهرة يوم السبت رابع جمادى الأولى ٦٩٨هـ/ الثامن من فبراير ١٢٩٩م، ويصف المقريزي مشهد استقبال الناصر محمد بقوله: "وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد من الناس فرحاً بقدومه، وخرجوا إليه عامة"[٥]. مما يظهر إجماع أهل مصر على قبول ولاية الناصر محمد.

ومثَّلت ولاية الناصر محمد الثانية–التي بدأها وله من العمر أربع عشرة سنة– الحقبة الثانية ،التي صُقلت فيها خبرته بما وقع فيها من فتن وأحداث؛إذ استمر ظهور تكتلات الأمراء داخل القلعة: حيث ظهرت جماعتان متنافستان، كان على رأس الأولى منهما الأمير سلار[٦] نائب السلطنة، وعلى الثانية الأمير بيبرس الجاشنكير.

وما كاد الناصر محمد يتسلم مقاليد السلطة في ولايته الثانية، حتى ظهر خطر المغول من جديد، فاضطر إلى مواجهتهم في معركتين كبيرتين ،هما وادي الخزندار أو مجمع المروج

---

(١) سيف الدين آل الملك الجوكندار، كان من كبار الأمراء في عهد الناصر محمد بن قلاوون، ثم تنقل في المناصب إلى أن قُبض عليه وتوفي في الإسكندرية سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ١/ ٦١٨-٦٢٠؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ١/ ٤٨٩؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٨٥/٣.

(٢) علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي، ولد في سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وقد ولاه الأمير سَلار نيابة غزة، وتوفي في سنة ٧٤٥هـ. الصفدي، **أعيان العصر**، ٤٦٧/٢؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ٣١٦/٣.

(٣) الغور: غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس لذا سمي الغور، وطوله مسيرة ثلاثة أيام، وعرضه نحو يوم، وبه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة. انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ٢١٧/٢.

(٤) جمال الدين آقش المعروف بنائب الكرك، كان من مماليك المنصور ثم وُليّ نيابة الكرك عن الأشرف، ثم عزل واعتقل بمصر ثم أفرج عنه وتوفي وتوفي بالإسكندرية سنة بضع وثلاثين وسبعمائة. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ٥٧٨/١ فما بعدها؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ٤٧٠/١.

(٥) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٧٢.

(٦) سلار: الأمير الصالحي المنصوري، نسبة إلى الصالح علاء الدين علي بن المنصور قلاوون، فلما مات الصالح صار من خاصة المنصور قلاوون، ثم استنابه الناصر محمد بن قلاوون، واستمر في النيابة إلى أن غضب عليه في ولايته الثالثة، واعتقل ومات في سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٣٣/١٦؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٥/٦

في شهر ربيع الأول ٦٩٩هـ/ديسمبر ١٢٩٩م[١]، التي لقى فيها هزيمة نكراء، والثانية موقعة شقحب، أو مرج الصُفْر في شهر رمضان ٧٠٢هـ/مارس ١٣٠٣م[٢] التي هزم فيها المغول شر هزيمة[٣]، ودون الخوض فيما أكسبته هذه المعارك الناصر محمد من خبرة كبيرة على الجانب العسكري والسياسي في هذه المرحلة المبكرة من حياته، فإن أهم ما اكتسبه الناصر محمد من – خبرة، في رأيي– هو احتكاكه المباشر بفرق الجيش للمرة الأولى في أثناء مسيره إلى الشام للقاء العدو، واطلاعه على التناقضات والخلافات بين كل منها ،وانعكاس ذلك على شخصه، خاصة وأن إحدى هذه الفرق هي فرقة المماليك السلطانية.

وتذكر المصادر[٤] أنه في أثناء مسير الجيش إلى الشام في المحرم سنة ٦٩٩هـ/سبتمبر ١٢٩٩م، كثر التنافس والتحاسد بين الأمراء، وعند وصولهم إلى غزة قامت فرقة الأويراتية– وهي الفرقة المغولية التي كانت مساندة للعادل كتبغا– بتدبير مؤامرة مع بعض المماليك السلطانية، للوثوب على الأميرين بيبرس وسلار ،وقتلهما ،وإعادة دولة العادل كتبغا. وبعد رحيل الجيش من غزة ونزوله في تل العجول، هجم أحد المتآمرين على بيبرس الجاشنكير لقتله، ولكن الأخير تمكن من النجاة، وكادت فتنة كبيرة بين العسكر أن تقع ، فأرسل سلار إلى السلطان وأمير جنداره يقول: "ما هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت ونحن على لقاء العدو؟ وقد بلغنا أن الأويراتية قد وافقت المماليك السلطانية على قتلنا، وكان هذا برأيك ورأي السلطان، وقد دفع الله عنا... فلما سمع السلطان بكى، وحلف أنه لم يكن عنده علم بما ذُكر..."[٥]، وظن أمير جاندار أن الأمراء إنما قصدوا من ذلك قتل السلطان، لذا أرسل إليهم يقول: "إن كان السلطان ومماليكه قد شوشوا على الأمراء فأنا آخذ السلطان ومماليكه وأسير إلى الكرك"[٦]، ثم هدأت الفتنة، وقبل جميع الأمراء الأرض للسلطان، وشنق خمسين من

---

(١) وادي الخزندار أو مجمع المروج يقع في بلاد الشام بين سلمية وحمص. ياقوت، **معجم البلدان**، ٤٧٤/٢.

(٢) مرج الصُفَّر أو شقحب: موضع في نواحي دمشق، بينها وبين الجولان. ياقوت، **معجم البلدان**، ٤١٣/٣، ١٠١/٥.

(٣) للمزيد عن هذه الموقعة راجع: محمد بن لطفي الصباغ، "معركة شقحب أو معركة مرج الصفر"، مجلة البحوث الإسلامية، ع١٠، (السعودية: رجب/ شعبان/ رمضان/ شوال/ ١٩٨٤م)، ٢١٣-٢٣١.

(٤) الدوادار، **زبدة الفكرة**، ٣٣٠؛ النويري، **نهاية الأرب**، ٤١١/٢٧؛ الدواداري، **كنز الدرر**، ١٥/٩.

(٥) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٨٤.

(٦) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٨٤.

الأويراتية[1]، كما أرسل من ثبت عليه الاتفاق مع الأويراتية من مماليك السلطان إلى الكرك ليسجنوا هناك.

(تضمنت أحداث معركة وادي الخزندار فصولا من الإخفاقات ،تعلّم الناصر محمد منها كثيراً، سواء على مستوى التخطيط العسكري أم على مستوى تهيئة معسكر الجيش، بأمرائه وفرقه وجنده، وإذابة ما بينهم من خلافات للاستعداد للمعركة، وانتهت معركة وادي الخزندار بهزيمة نكراء للمماليك، واستولى على إثرها المغول بقيادة غازان على أجزاء كبيرة من بلاد الشام[2].

وعاد الناصر محمد وفلول جيشه إلى القاهرة وفي شهر ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ديسمبر ١٢٩٩م، وأخذ يعدّ العدة لملاقاة المغول ثانية، وفي ذلك الوقت دار حوار بين الأمير سلار نائب السلطنة، والشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد[3] لأخذ موافقته على ضريبة تُفرض على الناس ليتم تأمين احتياجات الجيش، ولا شك في أن هذا الحوار كان مؤثراً في الصبي الناصر محمد وفهم مغزاه جيداً ،ومدى النفوذ الذي يتمتع به العلماء في عهده. فيروي المقريزي أن سلار ،"أحضر فتوى الشيخ عز الدبن عبدالعزيز بن عبدالسلام للملك المظفر قطز، بأن يؤخذ من كل إنسان دينار، فرسم بأخذ خط الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد، فأبى أن يكتب بذلك، فشق على سلار واستدعاه وقد حضر عنده الأمراء، وشكا إليه قلة المال، وأن الضرورة دعت إلى أخذ مال الرعية لأجل دفع العدو، وأراد منه أن يكتب على الفتوى بجواز ذلك فامتنع... وقال: لم يكتب ابن عبدالسلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلي نسائهم وأولادهم ورآه، وحَلَفَ كلا منهم أنه لا يملك سوى هذا، كان ذلك غير كاف؛ فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن

---

(١) الأويراتية إحدى طوائف المغول الذين وفدوا إلى الرحبة في الشام سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م بعد أن تعرضوا لهجمات غازان عليهم، فأمر العادل كتبغا بحسن استقبالهم، ثم سمح لهم بالقدوم إلى القاهرة، وأسكنهم الحسينية، وأنعم على مقدميهم بالتقادم والإقطاعات. انظر: المقريزي، **السلوك**، ١/٣، ٨١٢؛ النويري، **نهاية الأرب**، ٣١، هـ١.

(٢) الدوادار، **زبدة الفكرة**، ٣٣٠؛ الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ٤٦٢/١ فما بعدها؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٨٧-٨٨٩.

(٣) تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع المعروف بابن دقيق العيد، قاضي قضاة الشافعية، ولد في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، وتوفي في سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، انظر: محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣-١٩٧٤م)، ج٣، ص٤٤٢؛ الصفدي، **أعيان العصر**، ٤٧٦/٤؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٣٧/٤؛ عبدالوهاب بن علي السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، ط٢، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ)؛ ج٩، ص٢٠٧.

فيبلغني أن كلا من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلي، ويعمل الإناء الذي يستنجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر، وقام عنهم"[١].

وبعد مرور ثلاث سنوات وبضعة أشهر التقى الناصر محمد بن قلاوون بالمغول للمرة الثانية ،في معركة شقحب ،في شهر رمضان سنة ٧٠٢هـ/أبريل ١٣٠٣م، وانتهت بانتصار باهر للمماليك على المغول .وبعيداً عن سرد أحداث هذه المعركة وآثارها الكبيرة على مسيرة المعارك بين المماليك والمغول في بلاد الشام، فإنه من الواضح الدور الكبير لأمراء الجيش المملوكي وعلى رأسهم سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير، مما سيعظِّم من مكانتهم ويمنحهم شرعية أكبر في السيطرة على شؤون الحكم في الولاية الثانية للناصر محمد، يقول المقريزي: "وأبلى ذلك اليوم [سلار] هو وبيبرس بلاءً عظيماً، إلى أن كشفا التتار عن المسلمين"[٢].

ومع تعاظم قوة القادة العسكريين– كما سبق وذكرنا– بدأ الناصر محمد بن قلاوون يشعر بالعجز وقلة الحيلة ،عندما مُنع من الاحتفال بمولد ابنه الملك المنصور علي، سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، واكتفوا بالاحتفال ليوم واحد فقط[٣].

وقد بلغ التضييق مداه على السلطان الناصر محمد بن قلاوون فدفعه هذا إلي الشكوى إلى الوزير ناصر الدين محمد بن الشيخي[٤]، عندما التقى به في رحلة صيد بتروجة[٥]، فطمأنه الوزير وقدَّم إليه ألفي دينار[٦].

و كان تقرّب الوزير ابن الشيخي من السلطان سبباً في تعذيبه ثم قتله من قبل الأمير سلار نائب السلطنة ،في السابع من ذي القعدة سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، إذ يذكر المقريزي أنه في أحداث هذه السنة: "أوقع بالوزير ناصر الدين محمد بن الشيخي، وسببه أن الأمير سلار

---

(١) الدواداري، **كنز الدرر**، ١٥/٩؛ المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٨٩٧–٨٩٨.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٩٣٣؛ قارن أيضاً: أبو الفدا، **المختصر**، ٤٩/٤.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٩٥٢.

(٤) ناصر الدين محمد ابن الشيخي المعروف بذبيان، جاء من دمشق وتوصل إلى المظفر بيبرس الجاشنكير إلى أن تولى ولاية القاهرة، ثم تولى الوزارة إلى أن قبض عليه وصودر وتوفي في سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م. انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ٨٩/٣٢؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٢٨/١٤.

(٥) تروجة: قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٣٣٧/٢ هـ٣، ٣٠/٤ هـ٣.

(٦) المقريزي، **السلوك**، ٣/١، ٩٥٥.

النائب لما قدم من الحجاز عرفه الجمدارية اجتماعه بالسلطان على تروجة ،ومسارته له ،وحمله مبلغ ألفي دينار ،وأنه فاوضه في أمر الأمراء ،وشجعه عليهم ،وأن السلطان كلما احتاج إلى شيء استدعى به منه فيحمله إليه. فشق ذلك على سلار"[1]. فعلى الرغم من قرب الشيخي من بيبرس الجاشنكير ومحاولة الأخير التشفع فيه عند الأمير سلار الذي ما إن فاتحه فيما فعله الشيخي من تقرب وتطمين للناصر محمد ،وتحريضه على الأمراء في أثناء وجوده في تروجة إلا وهدأ الجاشنكير ولم يتحدث في موضوع الشيخي، أو يقول المقريزي: "فأمسك عنه وقام"[2].

وفي خطوة لإضعاف سلطة الناصر محمد بن قلاوون جُعلت هذه الحادثة عِبرة لكل من يحاول التقرّب إلى السلطان الناصر محمد في تلك الفترة، ومما لا شك فيه أن هذا العمل أثَّر تأثيراً سلبياً بالغاً في نفسية الناصر محمد، وتأكد لديه أنه لا يعدو أن يكون ظلاً لا يملك من السلطنة إلا اسمها.

وكان من نتائج هذه الأحداث وأمثالها، ظهور صراعات بين السلطان من ناحية، والأمراء من ناحية أخرى، بل بين الأمراء أنفسهم، أدَّت لحدوث بعض الفتن التى ذكرتها المصادر المعاصرة للأحداث[3] بتفاصيل كثيرة توحي بكم هائل من الدروس تعلمه الناصر محمد خلال ولايته الثانية.

وكان للظروف التي عايشها الناصر محمد ،والمواقف التي تعرَّض لها دور في اقتناعه بأن الأمراء يرون وجوده على رأس السلطنة لحفظ التوازن بينهم ودرء الفتنة بين كبرائهم، لذلك ما إن فطن لهذا الأمر، وأن تركه لعرش السلطنة كشف المستور وتقع الفتنة بين الأمراء ويتخلص منهم ويصفو له الحكم، وهذا بالفعل ما أثبتته الأيام ، وقرر أن يعزل نفسه اختيارياً بحيلة ذهابه إلى الحج ،سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، ثم استقر في الكرك ،وحصنها ،وأرسل إليهم يخبرهم بذلك،

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ١/٢، ٩.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ١/٢، ١١؛ قارن كذلك: النويري، **نهاية الأرب**، ٨٩/٣٢-٩٠؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٢٨/١٤؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٨: ٢١٤.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ١/٢، ٢٢-٢٦، ٣٣-٣٦؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٢١/٨-٢٢٢.

فاجتمعوا على سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وكانت مدة الولاية الثانية للناصر محمد عشر سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوماً[1].

- **ولاية الناصر محمد الثالثة:**

مثَّلت إقامة الناصر محمد في الكرك للمرة الثانية فترة حرجة على المظفر بيبرس الجاشنكير ومن يؤيده من الأمراء، وترسيخاً واختباراً لشرعية الناصر في ولايته الثالثة والأخيرة، فالمدة التي مكثها المظفر بيبرس في الحكم، وكانت عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما– مُلئت بالفتن والدسائس بين الأمراء في القلعة، وكانت فكرة عودة الناصر محمد مطروحة طوال هذه الفترة، إلى أن بايعه نواب الشام وخُطب له بدمشق ، في شعبان ٧٠٩هـ/يناير ١٣١٠م، وبالقاهرة في ١٩ رمضان/٢١ فبراير ١٣١٠م[2].

وحملت ولاية الناصر محمد الثالثة في طياتها رغبة السلطان في تولي زمام الأمور والاستقلال، خشية التلاعب به أو محاولة السيطرة عليه من قبل الأمراء، كا حدث في ولايتيه الأولى والثانية، بل إن المخاوف من كبت الحرية ومصادرتها، أصبحت جزءًا من لاوعيه، وشكلت سياسته اللاحقة في تلك الحقبة تجاه أمراء دولته؛فلقد أثرت المواقف التي تعرض لها الناصر محمد خلال هاتين الولايتين في الجانب النفسي لشخصيته، وظل هذا الأثر باقياً حتى انفرد بالسلطة الكاملة خلال ولايته الثالثة، وسيلحظ القارئ في الصفحات الآتية بعض الأمثلة على ذلك، وهي عبارة عن مجموعة من المواقف وتصرف الناصر محمد فيها وفق ما كان يجيش في نفسه من آلام الماضي.

ثانياً: الأثر النفسي لنشأة الناصر محمد على علاقته بأمراء دولته.

وتعددت الأمثلة التي عبّر فيها الناصر محمد عن مكنون نفسه مما تعرض له في صغره؛ فقد عاد إلى الحكم في ولايته الثالثة شابا ناضجا له من العمر خمس وعشرون سنة، شهدت هذه السنوات كَماً هائل من الأحداث والمواقف، تعرضنا لأبرزها فيما سبق، أثَّرت في

---

(١) الدوادار، **زبدة الفكرة**، ٤٠٤-٤٠٥؛ المقريزي، **السلوك**، ٢/١،٤٦؛ لمزيد من الاستنتاجات عن دوافع الناصر محمد للذهاب لعزل نفسه عن الحكم في ولايته الثانية راجع: حياة ناصر الحجي، **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٢٣-٢٤.

(٢) أبو الفدا، **المختصر**، ٤/٥٦-٦٧؛ المقريزي، **السلوك**، ٢/١/٦٨-٧١.

شخصيته وأكسبته خبرة وتجربة وسمات خاصة أثرت فى إدارته لشؤون الحكم، إضافة إلى ظهور نزعات نفسية ، أبرزها التقلب المزاجي، والتردد، والتناقض، وعدم الثقة فيمن حوله، والتطرف في بعض الأحكام والعقوبات القائمة في أغلبها على الشك والظن دون التثبت من الجُرم المرتكب، وقد انعكست هذه النزعات على كثير ممن حوله أياً كانت درجة قربهم منه، فكان– على حد تعبير ابن تغري بردي– : "ذا بطش ودهاء وحزم شديد وكيد مديد.. أمسك إلى أن مات مائة وخمسين أميراً"(١)

عاد الناصر محمد في فترة حكمة الثالثة سلطاناً فطناً مُطلق النفوذ، وصفه ابن تغري بردي بقوله:" وكان مفرط الذكاء، يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم بأسمائهم، ويعرّف بهم الأمراء خشداشيتهم(٢) فيتعجبون الأمراء من ذلك، وكذلك مماليكه لا يغيب عنه اسم واحد منهم ولا وظيفته عنده، ولا مبلغ جامكيّته، هذا مع كثرتهم. وكان أيضاً يعرف غلمانه وحاشيته على كثرة عددهم، ولا يفوته معرفة أحد من الكتّاب... وكان يستبدّ بأمور مملكته وينفرد بالأحكام، حتى إنه أبطل نيابة السلطنة من ديار مصر ليستقلّ هو بأعباء الدولة وحده"(٣).

وبدأ الناصر محمد فترة حكمة الثالثة بحملة اعتقالات واسعة النطاق، وتبعتها حملة مصادرات لكثير ممن تم اعتقالهم، كما قام بحركة تنقلات في الوظائف العسكرية والإدارية في مختلف أرجاء السلطنة، إضافة إلى إصدار أحكام بالإعدام على بعض الذين أيدوا النظام البائد، وقد فكك بهذه القرارات مراكز القوى التي كانت موجودة منذ وفاة والده المنصور قلاوون، ومقتل أخيه الأشرف خليل، وكانت أبرز هذه الأحداث قتله للمظفر بيبرس الجاشنكير وبعض مماليكه، وعزله للأمير سلار نائب السلطنة ثم قتله، وترقيته لعدد من مماليكه الذين كانوا في صحبته بالكرك إلى رتبة الإمارة(٤).

---

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٩/ ٢١٠– ٢١١؛ قارن كذلك: منال أحمد خليل أبو بكر، "صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣هـ/٧٤١هـ) في أدب العصر المملوكي الأول"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، ص ١٣٨–١٥٠.

(٢) الخُشْدَاشِيَّة رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشؤوا مماليك عند سيد واحد، انظر: حاشية زيادة، المقريزي، **السلوك**، ج١، ٢/٣٨٨٨–٣٨٩.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٩/ ١٧٣– ١٧٤.

(٤) المقريزي، **السلوك**، ٢/١/٧٥–٨٧؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٩/ ١٢.

وكان الناصر محمد لا يأمن لواشٍ يشي على أحد عنده، فبعد أن يفيد من وشايته يعاقبه لعدم إخلاصه لمن وشى بهم، ومن أمثلة ذلك أنه عندما وشي عنده المؤرخ المعروف، شهاب الدين أحمد النويري (ت ٧٣٣هـ)، بوكيله شهاب الدين أحمد بن عبادة[١]، "فلم يعجب السلطان منه وقيعته في ابن عبادة، وعرف ابن عبادة ما قاله في حقه، وسلمه إليه ، ومكّنه منه، فضربه بالمقارع ضرباً مبرّحاً وصادره"[٢]، وأيضًا عندما قام بيبرس الجمدار– أحد مماليك المظفر الدين موسى ابن الملك الصالح علي بن قلاوون– بكشف مؤامرة سيده للوثوب على الحكم، ليتخذ يداً عند الناصر محمد، ما كان من السلطان إلا أن قبض على المتآمرين وأصدر أوامره بتعذيبهم وتسميرهم بما فيهم الجمدار[٣].

وقد اعتقل الناصر محمد عدداً كبيراً من كبار رجال دولته بدون تهمة محددة ، وعندما أراد أحدهم – وهو الأمير أسندمر كرجي[٤] نائب حلب معرفة الذنب الذي ارتكبه – قال له: "مالك ذنب إلا أنك قلت لما ودعتُك عند سفرك: أوصيك ياخوند لا تترك في دولتك كبشاً كبيراً، وأنشئ مماليكك!، ولم يَبق عندي كبش كبير غيرك"، يضاف إلى ذلك ما ذكره ابن تغري بردي من أن الأمير أسندمر كرجي كان متولياً حماة، وعندما عزله السلطان منها، ذهب إلى حلب دون مرسوم السلطان، ثم كتب يسأله نيابتها، فأعطاها السلطان له بعد أن أسرَّ ذلك في نفسه لكونه أخذ نيابته باليد[٥].

ويُعد هذا التصرف من الناصر محمد قاعدة عامة سار عليها منذ بداية عهده في ولايته الثالثة، ويورد الشجاعي تقديره لهذه القاعدة واستمرارها مع مماليكه كذلك بقوله: "كان

---

(١) شهاب الدين أحمد بن علي بن عُبادة، وكيل الناصر محمد، ونال عنده حظوة كبيرة، وتوفي في سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ١٧٣/٣٢؛ الصفدي، **أعيان العصر**، ٢٩٧/١؛ **الوافي بالوفيات**، ١٦٠/٧-١٦١.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ٩٢/١/٢؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ٢٤٧/١.

(٣) الجَمْدَار: من يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله جاما دار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالاً، وقيل: جمدار. وهو في الأصل مركّب من لفظين فارسيين أحدهما جاما ومعناه الثوب، والثاني دار ومعناه ممسك، فيكون المعنى ممسك الثوب. انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ٤٥٩/٥.

(٤) أسندمر كرجي: هو أسندمر نائب طرابلس التي وليها في سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م، ثم تولى نيابة حماة وحلب، وبعدها غضب عليه السلطان واعتقله في ذي القعدة ٧٢١هـ/ نوفمبر ١٣٢١م. انظر: ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ٤٦٠/١-٤٦١.

(٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٩: ٢٣.

من عادته [الناصر محمد] وخلَّة سياسته، أن إذا كبر أحد من أمرائه ومماليكه أذهبه وأقام صغيراً غيره ليأمن من مكره ويكتفي شره"[١].

وكان الناصر محمد يستمع إلى المتنافسين من موظفي دولته لعله يخلُص من أي منهما بما يفيده على الجانب المادي، فعندما تشاحن القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله[٢]، ناظر الجيش، مع فخر الدين أياز الشمسي مشد الدواوين[٣]، وشعر الأخير بالإهانة البالغة التي تعرض لها، اجتمع بالسلطان وأغراه بناظر الجيش، ووعده أنه بإمكانه استخلاص مائة ألف درهم منه، فأعجب السلطان بحديثه، وسلم الفخر له لاستخلاص ما التزم منه وقال له: "تَسلَّمه وخذ مالي منه"[٤].

وظل الناصر قلقاً من تكتل الأمراء الكبار الذين ساعدوه في الوصول إلى الحكم في الولاية الثالثة، وكان على رأسهم الأمير قراسنقر المنصوري، واحتال في القبض عليه أكثر من مرة، ولكنه لم يظفر بذلك، وكانت بلاد الشام مسرحًا لمطاردة السلطان للأمير قراسنقر[٥] والأمراء المؤيدين له بدافع الخوف من القبض عليهم ،كما اعتقل غيرهم من خشداشيتهم، وتمكن من اللجوء إلى المغول مع بعض الأمراء الكبار مثل الأمير جمال الدين أقوش الأفرم[٦]، الأفرم[٦]، وأرسلوا إلى مصر حريمهم بصحبة ابنيهما الأمير فرج بن قراسنقر، والأمير موسى بن

---

(١) الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ٧١.

(٢) فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيوش المصرية في عهد الناصر محمد، وكان معروفاً بمشورته عليه بالخير للناس. توفي في سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. أبو الفدا، **المختصر**، ١٠٥/٤؛ محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: محمد السعيد ابن بسيوني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج٤، ص٩٣.

(٣) فخر الدين إياز، ولاه الناصر محمد شد الدواوين بمصر، ثم نقله إلى الشام لتولي شد دواوين دمشق في سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، وتوفي ٧٢٢هـ/١٣٢٢م. انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ٢٠٥/٣٢؛ الصفدي، **أعيان العصر**، ٦٤١-٦٤٢.

(٤) الدواداري، **كنز الدرر**، ٢٣٨/٩، ٢٤٤؛ المقريزي، **السلوك**، ١١٦/٢/١.

(٥) شمس الدين قراسنقر بن عبد الله المنصوريّ، من كبار المماليك المنصوريّة نسبة إلى المنصور قلاوون، ولي نيابة حلب والشام وكان ممن شارك شارك في قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وممن تسبّب في عودة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه في المرّة الثالثة وتوفي في مدينة مراغة بأذربيجان في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م،، انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ٨٧/٤؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٥٩/٢٤؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ٢٨٧/٤؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ٢٧٣/٩.

(٦) جمال الدين آقوش الأفرم، نائب دمشق ثم صرخد ومن بعدهما طرابلس. كان من مماليك المنصور قلاوون، ومن أكابر البرجية، وقابل الناصر الناصر محمد في دمشق في أثناء قدومه من الكرك لتسلم الحكم في ولايته الثالثة، هرب مع قراسنقر إلى بلاد المغول، وتوفي بمهذان بعد العشرين والسبعمائة ودفن بها. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٩٠/٩-١٩٥؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ٩/٣-١٤.

أقوش الأفرم، وأبلغوا السلطان: "أن ما حملهم على دخول بلاد العدو إلا الخوف، وأن الأولاد والحريم وِدَاعة، فليفعل السلطان معهم ما يليق به؛ فقدما إلى القاهرة وبقيا في الخدمة"[١]

ويبدو أن هذه الحركة أربكت الناصر محمد كثيراً، ودفعته إلى القيام ببعض الإجراءات؛ إذ تخيّل من جميع الأمراء الكبار بدولته، ظناً مه أنهم يميلون إلى قراسنقر وحزبه، لذا أمر باعتقال عدد كبير منهم "لميلهم إلى قراسنقر"، وأبرزهم جمال الدين آقوش نائب الكرك، وبيبرس المنصوري الدوادار، نائب السلطة بمصر، وغيرهم، ولكي يشغل الفراغ الذي تركه هؤلاء الأمراء في مناصبهم، فى عدداً كبيراً من مماليكه أمراء ،ما بين أمراء ألوف وعشروات وطبلخاناه ليحلوا محلهم في الأعمال[٢].

مما يسبق تتضح الإنعكاسات النفسية في تصرفات الناصر محمد التي اتسمت بالحيطة والحذر؛ إذ أحاط نفسه بمن يثق بهم من مماليكه، وتلافي الأخطاء التي وقع فيها أخوه الأشرف خليل عندما ترك كبار الأمراء حوله يحيكون المؤمرات ضده إلى أن انتهى الأمر بمقتله.

ومن أبرز الإنعكاسات النفسية السلبية في تصرفات الناصر محمد ضد كبار رجال دولته، نكبته للأمير سيف الدين تَنْكز[٣]، نائب السلطنة بالشام، وأحد أركان الدولة المهمة في الفترة الثالثة لحكم الناصر– إذ تولى النيابة من سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م إلى سنة ٧٤٠م/١٣٤١م، وذلك بعد أن غضب عليه واعتقله ونفاه إلى الإسكندرية ثم أعدمه، وهو الذي كانت تربطه به علاقة وثيقة فاقت جميع أقرانه لمدة ثلاثة عقود.

وقد تمثل أثر الضغوط النفسية نتيجة ما مرَّ به الناصر محمد من تجارب قاسية– تلك التي ذكرناها سابقاً– في أبرز صورة فى علاقته بسيف الدين تنكز، صاحب المكانة الأثيرة عنده في أكثر من مظهر على المستويين الإداري والشخصي؛ إذ منحه نفوذاً على نواب السلطنة كافة

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ١١٥/٢/١.

(٢) **السلوك**، ١١٧/٢/١–١١٨.

(٣) الأمير سيف الدين تنكز الحسامي، كان من مماليك حسام الدين لاجين ثم انتقل إلى الناصر محمد الذي عينه نائباً على الشام في ولايته الثالثة في سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، وكان في مكانة كبيرة في الدولة إلى أن تغيَّر عليه السلطان واعتقله وقتله في سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م، انظر: الكتبي، **فوات الوفيات**، ٢٥١/١؛ الصفدي، **أعيان العصر**، ١١٦/٢؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ٢٦٠/١٠؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ٦٤/٢؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ١٥٦/٤.

في بلاد الشام، وألا يكتب أحد منهم كتاباً إلى السلطان مباشرة، بل يكتب أولاً إلى تنكز وهذا بدوره يكتب إلى السلطان بما يراه مناسباً، وفي هذا يقول الشجاعي: "طالت في النيابة مدته، وكبرت شوكته، وكثرت حاشيته، وعلت حرمته، وانتشر في الشرق والغرب ذكره. وعظَّمته الخلايق لتعيظم السلطان له، ونفاذ كلمته عنده ولرجوع السلطان لرأيه ولسماع ما يشيره عليه عند المهمات والملمات... وحكَّمه في الشام جميعه تحكيماً لم يحصل لغيره. ورسم لنواب الأقاليم الكبار مثل نائب حلب وطرابلس وحاجب حماة وغيرهم أن يُطالعوه بأحوالهم وما يتجدد لهم وهو يُطالع بها لمولانا السلطان. وإذا حضرت كتب نواب الأقاليم للسلطان يعرض على الأمير سيف الدين تنكز وهي مفتوحة فيقراها ويعلَم مضمونها ثم يختمها، ويكتب السلطان من عنده كتاب على نصها ويعرفه بموجبها، ويدرجها طي كتابه ويرسلها صحبة من حضر بها إليه من جهة النواب"[(١)].

ويواصل الشجاعي حديثه عن هذه المكانة قائلاً: "وحصل له من مولانا السلطان التجمل العظيم بحيث إنه إذا سأل أمراً لا يرد عليه، وإذا فصل حكماً لا ينكر عليه، وإذا أشار بأمر فمندوب إليه، ومهما شاء فعل بالشام، لا يرد شيئاً من أحكامه ولا ينقض إبرامه. وبلغ من تحكمه بالشام وتصرفه في الأيام إلى أن صار يمسك من يختار من الأمراء الكبار المقدمين الألوف والطبلخانات. أن خرج عن الطريق أو زاغ عن التحقيق ضربه الضرب الشافي وأخذ سيفه واعتقله بغير مرسوم، ويرسل يعرف السلطان بما صنع ذلك الأمير وأنه اعتقله بهذا الذنب الحقير، فلا ينكر عليه في شيء من ذلك، ويعود بالجواب إليه بالشكر له على ذلك"[(٢)].

وينقل الصفدي– الذي كان معاصراً ومصاحبًا الأمير سيف الدين تنكز[(٣)]– قول الناصر محمد في حقه: "لي ثلاثين سنة وأنا أحاول من النَّاس أَن يفهموا عني ما أرومه فِي حق الأمير ولم يفهم الناس عني ذلك وناموس الملك يمنع من قولي ذلك بلساني وهو أني لا أقضي

(١) الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ٧٢.

(٢) نفسه، ٧٢-٧٣.

(٣) انظر مرافقته لركب الأمير تنكز فى زيارته الأخيرة إلى القاهرة في سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م، خليل بن أيبك الصفدي، **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، تحقيق: إحسان بنت سعيد خُلوصي وزهير حميدان الصمصام (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٢م)، ٢: ٢٣٤.

حاجة لأحد إلا على لسانه أَو بشفاعته ودعا له بطول العمر"[1]. كما قال أيضاً: "وكان السلطان لا يفعل شيئاً في الغالب حتى يسير إليه ويستشيره فيه وقلّما كتب إلى السلطان في شيء فرده ومهما قرره من إمرة ونيابة ووظيفة وقضاء وإقطاع وغير ذلك ترد التواقيع السلطانية بإمضائها"[2].

وتأكيداً على هذه المكانة يسوق المقريزي رواية تتجلى فيها مكانة تنكز عند الناصر محمد في أثناء زيارته للقاهرة في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م ،يقول: "احتفل السلطان لقدومه احتفالاً زائداً، وكانت عادته أن يصرف عليه إذا قدم مبلغ خمسين ألف دينار، ما بين خُلع وإنعام؛ فرسم أن يكون في هذه السنة سبعين ألف دينار، ثم خرج السلطان لملاقاته... فركب السلطان إليه ومعه أولاده، وقدَّم إليه الحاجب [ليخبره] بأنه لا يترجّل عن فرسه حتى يُرسم له، وتقدَّم أولاد السلطان إليه أولاً. فلما قرب [تنكز] نزل السلطان عن فرسه إلى الأرض على حين غفلة من الأمراء، فألقوا أنفسهم جميعاً عن خيولهم؛ وألقى تنكز نفسه إلى الأرض، وعدا في مشيه جهد قدرته، وهو يقبل الأرض ويقوم إلى أن قبّل رجلي السلطان، وقد دُهش؛ فقال له السلطان اركب فرسك"[3]

يضاف إلى ما سبق من مظاهر العلاقة الوطيدة بين الناصر محمد ونائبه على الشام سيف الدين تنكز، أن هذه العلاقة قد زادت رسوخاً برباط المصاهرة، بعد أن زوج ابنته للسلطان فأنجب منها ولده الصالح صالح الذي تولى السلطنة سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م[4]، وفي إحدى زياراته إلى القاهرة قابله السلطان ببناته ليسلمن عليه، وأمرهن بتقبيل يده قائلاً للواحدة بعد الأخرى "بوسي يد عمك"، كما حدد منهن بنتين يتزوجهما ولدا[5].

وتَظهر الضغوط المؤثرة على الناصر محمد بن قلاوون واضحة حين أمر فجأة، ودون سابق إنذار باعتقال سيف الدين تنكز، بذريعة قيامه ببعض الإجراءات ضد نصارى دمشق

---

(١) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٠/٢٦١.

(٢) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٠/٢٦١؛ قارن أيضاً: موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي، **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق ودراسة: الدكتور أحمد حطيط، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١١٤-١١٧.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ٢: ٢/٤١٧.

(٤) **الشجاعي، تاريخ الملك الناصر**، ٧٣.

(٥) المقريزي، **السلوك**، ٢: ٢/٤٦١.

المتورطين في حريق المسجد الأموي والأسواق التي بجواره في سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، دون علمه؛ إذ عدَّ الناصر محمد هذه الإجراءات سوء تصرف من نائبه، وأخذ يوبخه عليها، فكان هذا بداية التغير في العلاقة.

وقد تناولت بعض الدراسات الحديثة أسباب نكبة تنكز بالتحليل[١]، ويهمنا منها ما نقلته المصادر لحوار تنكز الأخير، ودفاعه عن نفسه عقب قدومه إلى القاهرة في أواخر ذي الحجة سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، مع الأمير سيف الدين قوصون الذي كان وسيطاً بينه وبين السلطان، وتضمن كثيراً من انعكاسات نفسية الناصر بعيدة الغور وأنها نَفْسٌ"كثيرة التخيل"[٢]، يقول الشجاعي: "بقى السلطان في تشوش عظيم وقلق زايد وداخله الوهم... وحضر الأمير بيبرس السلحدار وصحبته الأمير سيف الدين تنكز مقيَّد... فحضر إليه الأمير سيف الدين قوصون من عند السلطان برسالة وهو يقول له: إيش هذا الكلام الذي عملته والأمر الذي دبرته؟فقال له تنكز: أنا ما عملت شيء ولا ذنب غير ذنب واحد أعرفه. قال له الأمير سيف الدين قوصون: ما هو ذنبك الذي تعرفه، قال له تنكز ذنبي أني كبرت وطالت مدتي. وأنتظر وفاتي فلم أمت، وكل نظرائي من خشداشيتي رحلوا، وأنا مملوك السلطان وعمري أعمل على ما يرضيه، وأمشي حسب ما يختار، ولا يجري مني شيء"[٣].

مما سبق عرضه يتَّضح تأثير بعض النوازع النفسية للناصر محمد، تلك التي اكتسبها من التجارب القاسية فى فترة نشوئه، ومن تعامله مع أمرائه ومماليكه وكبار رجال دولته، إذ مثلت هذه النزعات موجهاً رئيساً لهذا التعامل، خوفاً من تكرار ما حدث في الماضي من مؤامرات ومشاهد مؤلمة، كتلك التي كانت من القتل المروع لأخيه الأشرف خليل، ثم عزله من السلطنة لأكثر من مرة، وما تخلل ذلك جميعه من فتن وأحداث.

---

(١) انظر: عبدالجبار العملة، "نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، ٢٠٠٠م؛ حياة ناصر الحجي، "الأمير تنكز الحسامي نائب الشام في الفترة ٧١٢-٧٤١هـ/١٣١٢-١٣٤٠م"، كلية الآداب، جامعة الكويت؛ طه ثلجي الطراونة، "الناصر محمد بن قلاوون وسيف الدين تنكز: من الإنسجام إلى التناقض"، مؤتة للبحوث والدارسات، الأردن، مج٢٢، ع٥، ٢٠٠٧، ٢٤١-٢٨٢.

(٢) الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ٨١.

(٣) الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، ٨٨.

الخاتمة:

من خلال دراسة الأحداث التي خاضها الناصر محمد بن قلاوون، وأثرها النفسي على تعامله مع أمراء دولته، نلاحظ أن جرائم القتل بأساليبها البشعة، والغدر بأخيه من قبل أمراء دولته، ثم معاملته طفلاً وشاباً مسلوب الإدراة ،وتحجيم دوره السياسي ،والنظرإليه على أنه مجرد ورقة لحفظ التوازن داخل الدولة ،ألقت بظلالها على علاقته بأمراء دولته في فترة حكمه الثالثة إذ احتفظ في اللاوعي بجميع ما مرَّ به من ضغوط في ولايتيه الأولى والثانية، انعكس ذلك إيجاباً وسلباً على ولايته الثالثة.

ومن الناحية الإجابية، أسهمت هذه المواقف فى صقل شخصيته السياسية والإدارية، حينما انفرد بالحكم في ولايته الثالثة على الرغم من صغر سنه، فالخامسة والعشرون ليست بالعمر الذي يستطيع فيه حاكم غيره أن يحكم منفرداً وسط كثير من الأمراء الطامعين في السلطنة، أو التحكم في دولة في الحالات العادية. لكن الناصر محمد بن قلاوون كان شخصية صقلتها التجارب والمواقف ، فحكم اثنين وثلاثين عاماً مستقلاً ماحقق خلالها الكثير من الأمور، التي خدمت الدولة المملوكية في تلك الحقبة المبكرة بالنسبة لدولة استمرت لأكثر من ثلاثة قرون.

أما النواحي السلبية التي خلفتها – نشأته بين بشاعة القتل والغدر بأخيه ومحاولة تحجيم دوره داخل دولته– فانعكست لاحقاً على علاقته بأمراء دولته، حتى وصفته المصادر بكثرة التخيّل وعدم الثقة بمن حوله بشكل مفرط وصفها أحد أمرائه، وهو الشجاعي بقوله انه اتّبع خلة في سياسته، هذه الخلة تمثلت في الحكم على من حوله بالخيانة الضمنية، إذ أيقن أن استمرار الأمراء من حوله فترة طويلة يؤذن بزوال حكمه، لذلك نراه إذا كبر أحد أمرائه ومماليكه يعزله ويقيم أميراً صغيراً غيره، حتى يأمن مكره ويكفي شره، هذا إلى جانب تطرفه في بعض الأحكام والعقوبات التي كانت في أغلبها تقوم على الشك والظن والحكم دون التثبت من الجرم المرتكب.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ابن تغري بردي، يوسف، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، تقديم: سعيد عبدالفتاح عاشور، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، (د.ت)
- ------، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت)،
- الجزيري، محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت: المكتبة العصرية، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م)
- الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، ط٢ (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)
- الدوادار، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركية، قدم له: عبدالحميد صالح حمدان، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)،
- ------، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز (بيروت: مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)
- الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق: أولرخ هارمان، (القاهرة: المعهد الألماني للآثار، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)
- ------؛ كنز الدرر وجامع الغرر، الدُّرّ الفاخِر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر (القاهرة: قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، ١٣٧٩-١٩٦٠)،
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)
- ------، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري،

بيروت: دار الكتاب العربي، (١٤١٣هـ-١٩٩٣م)

- السبكي، عبدالوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو،
- الصفدي، خليل بن أيبك بن عبدالله، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، د.ط، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)
- ------، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: الدكتور علي أبو زيد وآخرون، (بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)،
- ------، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق: إحسان بنت سعيد خُلوصي وزهير حميدان الصمصام (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٢م)،
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبدالمعيد خان، (حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)
- أبو الفدا، إسماعيل بن علي بن محمود، المختصر في أخبار البشر، (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، د.ت)
- ابن أبي الفضائل، مفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره بلوشيه (١٩١٩-١٩٢٩م)،
- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ط، ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م
- المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)
- النويري، أحمد بن عبدالوهاب بن محمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)
- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة: الدكتور أحمد حطيط، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)
- اليونيني، موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، ط٢ (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)

ثانياً: المراجع

- الحجي، حياة ناصر، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- الحجي، حياة ناصر، الأمير تنكز الحسامي نائب الشام في الفترة ٧١٢-٧٤١هـ/١٣١٢-١٣٤٠م" مجلة كلية الآداب، جامعة الكويت.
- الطراونة، طه ثلجي، الناصر محمد بن قلاوون وسيف الدين تنكز: من الانسجام إلى التناقض"، مجلة مؤتة للبحوث والدارسات، الأردن، مج٢٢، ع٥، ٢٠٠٧، ٢٤١-٢٨٢.
- العملة، عبدالجبار، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، ٢٠٠٠م.
- محمد بن لطفي الصباغ، "معركة شقحب أو معركة مرج الصفر"، مجلة البحوث الإسلامية، ع١٠، (السعودية: رجب/ شعبان/ رمضان/ شوال/ ١٩٨٤م)، ٢١٣-٢٣١.
- أبو بكر، منال أحمد خليل، "صورة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣هـ/٧٤١هـ) في أدب العصر المملوكي الأول"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية في نابلس.